

## وقفه على القسطاط !

للأستاذ على الطنطاوى



قرأت في مذكرات حضرة صاحب السمو الملكي الأمير محمد على الطبوعه في مصر في ٩ ربيع الأول سنة ١٣٦٦ هـ أنه كان يتولى رئاسة لجنة حفظ الآثار المصرية ، فقررت اللجنة سنة ١٣٢٩ هـ ( إصلاح جامع عمرو وتجديده اهتماماً به من جهة أنه أول مسجد أسس في الإسلام بمصر ، وأنه مشرق أنوار العلوم الإسلامية بمصر منذ القدم ) ، ولئلا (ناب بقلة الاكتراث بمفاخرنا التاريخية ) .

واهتم بذلك الأجانب ، وكتب إليه أسانذة كبار محبذين ومشجعين ؛ وكاد يتم الأمر لولا أن أكثر الأعضاء المسلمين في اللجنة غابوا عن الجلسة التي عينت لإتمام المشروع فصارت (الأهلية) للأجانب .

قال الأمير : « فلما بدأت في تبادل الآراء مع الأعضاء في مسألة إصلاح الجامع ، قام هرنس باشا - مهندس الأوقاف إذ ذاك - وسألني : ما ذا تعملون في حيطان سور الجامع ؟ فقلت : حيث أن السور مهديم متخرب ، وأنه جدد سمراراً ، ولم يبق له منظر جذاب ، نريد أن نعمل سوراً جيداً نفخماً يتناسب واسم الجامع . فأظهر أسفه لهذا العمل ، وقال ، أننا إذن سنكسر ما فيه من طوب أحر أترى ، وأن هذا خسارة لا تتوض ، لأنها آثار قديمة ستنتف بهذا العمل !

وبعد ذلك سألت ميو ديغول الممثل الألماني لصندوق الدين قائلاً : ما ذا تعملون في البواكي ؟

ثم سألت المستشرق السويسرى بورك هارت : ما ذا تعملون في عمدان الجامع ؟

وبعد ذلك قام السيوفارنال الممثل الإنكليزى لصندوق الدين وسأل : ما ذا تعملون في البوابة الكبيرة ؟ »

وذكر الأمير جوابه لكل منهم ، وهو جواب مقنع ، ولكن القوم لم يقتنعوا !

قال : « ثم زاد امتعاضى وقت لجميع الجالسين : أما بندى جبينكم خجلاً من هذا الوضع أيها الجماعة ؟ إن الدين الإسلامى لا يسمح لتبر السلم أن يتدخل في أمور مساجد الله ، والحكومة المصرية سمحت وتساهلت إلى حد أن تتدخلوا في شؤون نحو مائتين وخمسين مسجداً في مصر دون حق شرعى ، والسلمون لما أرادوا تنظيم شأن جامع من أدخل الدين الإلـامى في بلادنا ، نجحون ويتوقفون عملنا ، وعلى هذا إنى متنازل عن رئاسة هذه اللجنة ... » . وتنازل الأمير ، ووقف العمل !



قرأت هنا ، فأحببت أن أزور الجامع ، ولم أكن زرته ، وهو قريب من الروضة حيث أقيم ، فسألت فوجدت أنه لا يصل إليه ترام ولا سيارة ، مع أن كل مكان في مصر ( إلا هو ) تمشى إليه سيارة أو ترام ، فذهبت أخوض في التراب ، في طرق مهمله ، ومسالك مغلقة ، حتى وصلت إلى الجامع ، وهو قائم كالشيخ المريض المدنف ، وسط المشش و ( الفواخير ) و ( الجيارات ) والحيوانات !

قلت : أهذا هو جامع عمرو ؟ قالوا : نعم . قلت : وهذه هي ( القسطاط ) ؟ قالوا : نعم !

القسطاط ، أول بلدة للمسلمين في مصر ، يهملها السلمون ، حتى تعود مقابر للنصارى ؟

القسطاط ، منزل الفاضحين الذين نشروا في مصر حضارة الإسلام ، يحى منها كل مظهر للحضارة ، فلا يكون فيها إلا ( الفواخير والجيارات ) ، وتذهب منها معالم الحياة ، فلا تكون إلا داراً الموتى ؟

هل يدري هؤلاء الذين يروحون ويفدون على هذه البقعة المتروكة ، وهل يدري أولئك الذين لم يزوروها ولم يروها أنه من هنا سطع النور الذى أضاء مصر بضوء الإسلام ، ومن هنا انبجس المين الذى روى العطاش من أبناء مصر وإفريقية ، ومن هنا مشت الراية الإسلامية حتى رفرفت على نصف دنيا الماضى من البحر الأحمر إلى ما وراء البيرنة ، ومن هنا خرج الصوت الذى أنى نظم الطبقات ، وساوى بين الناس في مصر ، وأهلام الحرية في دينهم ودنياهم ، وأنها هنا ولدت مصر زهيمه المروية

والترهيب ، يستخدمون المطايا والنايا ، لمل المصريين على مذهب في النصرانية غير مذهبهم فاستطاعوا . وهم جميعاً أهل دين واحد ، واستطاع عمرو أن يدخلهم بطوعهم ورضاهم في الإسلام ، فيكونوا هم أهله ، وتكون بلادهم بلده ، وهذه هي طريقة الفاتحين المسلمين ، لم ينقلوا الإسلام إلى البلاد التي فتحوها ، ولكن نقلوا أهلها إلى الإسلام<sup>(١)</sup> : أراهم فضله ، وأذاتهم عدله ، أعظام الحرية في عباداتهم ، وأعاد لهم بطبريركم بنيامين الذي طرده الروم ، ورفع الظالم عنهم ، ومنع بعضهم أن يستعبد بعضاً ، وحفر لهم الخليج في سنة واحدة ، من النيل إلى البحر الأحمر ، استعملهم فيه بالأجرة لا بالسخرة ، وجعله لهم لا لغيرهم ، فكان للخير والبركات ، لا كقناة السويس التي هي في أرضنا وليست لنا - فكانت هذه الأعمال خطباً ومحاضرات في الدعوة إلى الإسلام ، ما سمعها المصريون حتى انقلبوا جميعاً مسلمين ، وكذلك تكون الدعوة : بالأعمال لا بالأقوال .

\*\*\*

لقد رأيت مرة رواية مسرحية في جيمة إسلامية مثل فيها المثل عمرأ . رجلاً قيناً تعليماً عتالاً يتدس في القوم ، ويسترق الأخبار ، ويوقع الشر ، ويتمد الكذب ، فعلت أن هؤلاء الذين هدام الله بعمرو ، لا يعرفون من هو عمرو أ

أولا نغفروني من قال لكم إن عمرأ كان بهذه الخلائق ؟ ما الذي غرركم بتمثيله ؟

أليس على المثل أن ( يتدمج في دوره ) ويفهمه ويستعير روح من يمثله ؟ فهل تستطيعون أن تخلوا أبا جهل في فضائل جاهليته ، قبل أن تقدموا على تمثيل عمرو في عبقرية إسلامه ؟

لقد كان عمرو شريفاً في الجاهلية والإسلام ، وكان صادقاً صريحاً ، وكان شاعراً فصيحاً ، وكان أياً عزوفاً لا يرضى بالذنية من عمر ، وهو من هو ، ويرد عليه الكلمة بمثلها حين راسله في أمر خراج مصر ، وكان قفياً في دينه ، أسلم طائماً مختاراً ، فتوافقت على ورود شرعة الإسلام يومئذ عبقرية عظيمة من عظماء الناس كلهم لا العرب وحدهم . وما ردين من سرده القيادة

(١) الكلمة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد كنت عدت عليها فصلاً في الرسالة في السنة الماضية .

ومثابة الإسلام ؟ فن الذي كاد لهذه البقعة الطاهرة حتى صارت أوحش بقعة في مصر وأحطها وأبعدها عن الحضارة والنظافة والبهاء ؟ ما الذي صرف الناس عنها ، فلا يؤمها مصري ليذكر مشرق شمس الهداية منها على بلاده ، ولا يستطيع أن يصل إليها سائح ليرى فيها آثار أجد ذكرى في تاريخ مصر ؟ أيتخرب المسجد ويهمل الحصن ولا تشفع لها روعة البطولة ، ولا خشمة الإيمان ، ولا عظمة الملم ؟ !

أما والله الذي لا إله إلا هو ، لو كانت هذه الآثار لغيرنا ، لأمة تحس وتشعر وتقدر أجدادها ، لجملت بقاعها كلها كمبات يحج إليها ، ومنابر تغل على الناس سور البطولة فيصنف إليها الناس كأنها القرآن ، وتخلدت كل مكان مر منه عمرو ، وكل طريق سلكه ، وكل قلعة افتتحها ، من العريش إلى الفرما إلى أم دنين ( قرب حديقة الأربكية ) ، إلى ساحة المركة في عين شمس ، إلى ميدان الوقعة الكبرى ، التي كان فيها النصر عند حصن بابليون ( قصر الشمع ) عند جامع عمرو ، وامبدت هذا الطريق ، طريق الفتح ، وظلته بأشجار النار ، وكشفته بالورد والفل ، ولجملت في كل قرية وكل بلدة مدرسة باسم عمرو ، تعرف الناس بعمرو ، والدين الذي جاء به عمرو .

إن فتوح المسلمين المعجوبة التاريخ ، ومعجزة الدهر ، ولكن ليس فيها ما هو أعجب من فتح مصر ، فقد حير من الوجهة الحربية المسكرين ، وأدهش بنتائج المؤرخين .

لقد كان جيش عمرو يوم صدم مصر ، أربعة آلاف ، وما أربعة آلاف في جنب مصر وملك مصر ، ولو أطبق عليهم أهلها بأجسادهم لطحنوم ، ولو صار يوم بالحجارة اقتلوم ، ولو حصرهم من بعيد لأهلكوم ، ولكن أربعة آلاف فتحت مصر ، فتحتها ببقرية قائدها ، فتحتها بخلائقها وإيمانها . ومن كان معه الإيمان لا يقف له شيء .

ولقد فتح مصر من قبله فأنحون ، العرب ( المكسوس ) أبناء الجزيرة ، والفرس ، واليونان ، والروم ، فكان في مصر غالبون ومغلوبون ، غرباء حاكون ، ومصريون محكومون ، وليث الفتح ما لبثت القوة ، فلما زالت زال ، وعادت البلاد لأهلها فلما فتحها عمرو ، صارت لقومه إلى آخر الدهر .

ولقد دأب الروم وهم آخر من حكمتها طاملين بالترغيب

هذا هو عمرو وما عرفتموه ، قرأتم ما كذبه عليه المؤرخون يوم التحكيم ، ولم تقرأوا الحقيقة التي رواها المحدثون (١) وهم أوثق نقلا ، وأصدق قولاً ، وسمعت أنه من دهاة العرب ، فحسبتم الدهاء لا يكون إلا بالكذب والاحتتيال والدس والوقيمة . لا يأسده إن من تخرج في مدرسة محمد ، وكان رسول رسول الله ، لا يكون دساساً ولا كذاباً ، « إن المؤمن لا يكذب » ، هكذا قال الرجل الذي قال : « ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام » (٢) محمد رسول الله ا

هذا هو عمرو . أى قانع صنع مثلما صنع عمرو ؟ أى قائد كان أعظم بركة في ظفرك من عمرو ؟ أى مصلح كان أبقى أثرًا في إصلاحه من عمرو ؟

إنه ما شهد في مصر مسلم أنه لا إله إلا الله ، ولا قام مبتلى في صلاة ، ولا قدم واعظ في مصلا ، ولا قاض إلى منصبه ، ولا مدرس إلى أسطوانته ، ولا عمل مصرى من خير إلا وعمرو شريكه في ثواب عبادته ، لأنه السبب في هدايته ، ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ا عمرو بنى جامع ابن طولون ، وشاد الأزهر ، وعمر هذه المدارس ، وأقام هذه المساجد ، وأنشأ كل مظهر للإسلام في مصر . ما كان لولا عمرو ا

عمرو هو الذى رد براية الشرق في عينه جالوت ، وبرابرة الشمال في المنصورة ، وكان له فضل كل نصر ، كتب الله للإسلام في مصر ا

هذا هو عمرو ، فهل تلبى مصر في إصلاح جامعهم دعوة الأمير؟ وهل أعيش حتى أرى هذه البقعة أزهى بقعة في مصر وأبهاها ، يصر فيها الجامع حتى يصير أزهر ثانياً ، وهو ( كان ) أول أزهر في مصر . تمتد من حوله الشوارع الفساح ، والمدائن والجنان ، وترجع هاتيك المآثر ظاهرة ، ومن حولها القصور الماسرة ، ومنازل الكبراء ، ومراكز الجمعيات الإسلامية ، والمفوضيات العربية .؟

هل ترجع للفسطاط عهدوها الخليات ؟

### على الطنطاوى

(١) انظر التواصم والمواصم لتفاضى أبى بكر ابن العربي

(٢) الاستيعاب للمصنف الأندلسى ابن عبد البر

والحروب ، سيد القواد خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، هداة إلى الإسلام نطق سديد ، لم يدخله فيه طمع ولا طبع ، ولم تدفعه إليه رغبة ولا رهبة ، وكان صادقاً في إسلامه ، قوياً في إيمانه ، حتى ولاء الرسول صلى الله عليه وسلم حطّم رب من أرباب الباطل ، فاختره لهدم سواع ، وأقره على إمارة سرية فيها سادة الإسلام ومشايخه أبو بكر وعمرو وأبو عبيدة ، وجعله سوله إلى ملك عمان ، وأمينه على الصدقات فيها ، وشهد له « أنه من صالحى قريش » ، وقال فيه : « نم أهل البيت عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله » ونظر إليه عمر ، فقال : « ما يفتنى لأبى عبد الله أن يمضى على الأرض إلا أميراً » وقال قبيصة بن جابر : « صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أمين قرآنًا ، ولا أكرم خلقًا ولا أشبه سريرة بملانية منه » وكان عمر إذا رأى رجلاً عيباً يتلجلج في كلامه يقول : « أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو ابن العاص واحد » (١) .

وكان مشهده يوم بلغه انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملأ الأعلى ، مشهداً يلين القلوب الجامدة ، وما يفجع ولد يابيه ، أو محب بحبيبه ، فتكون لوعته عليه ، وحسرتة لفقده ، أشد من حسرة صمرو ولوعته .

وكان يوم الردة سيفاً من سيوف الله التى رجعت الإسلام إلى موطنه بعد ما كادت تشرده عنه الخطوب ، وأعز الله به الدين ، وقع الثائرين . ثم رمى به الصديق الروم ، وقدمه على ( من هم أقدم منه سابقه حرمة ) (٢) وجعله أحد القواد الأربعة ، فتجلت عبقريته حتى رجع الثلاثة إلى رأيه ، وبلغ الرأى أبابكر فافر ما رأى ، وكان فى اليرموك ثانى الأبطال ، بعد نابغة المارك خالد ، وكان بطل أجنادين ، فضرب الله به أرطوبون الروم بأرطوبون العرب ، فكان أرجح منه فى الميزان ، وكانت عبقريته أبى على وجه الزمان ، حتى قال عمر : غلبه عمرو ، لله عمرو ا أما النبيل فى سلاتقه ، والسمو فى خلاتقه ، وقوة جناه ، وفصاحة لسانه ، فاسألوا عنها كتب الرجال ، فما يتسع لها المقال .

\*\*\*

(١) تخريج الأحاديث فى الإصابة لإمام المفاظ ابن حجر

(٢) من كلام أبى بكر له فى وصيته الحبية التى تشهد لنا أننا نحن

أهل البطولة وأهل الحضارة لاهؤلاء اليرموين ا